

قراءة النص القرآني في ضوء مناهج الحداثة.
نموذج المنهج البنوي

*Reading the Quranic text in the light of modern approaches.
Structural approach model*

د. كمال بولعسل

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة الصديق بن يحيى - جيجل (الجزائر)
kamel.boulassel@yahoo.fr

تاريخ القبول: 2020/08/20

تاريخ الإيداع: 2019/11/06

ملخص:

تنبري هذه الدراسة لإبراز التأثير الفكري والفلسفي الذي مارسته الحداثة الغربية على الفكر الديني الإسلامي المعاصر، وكيف أدى ذلك إلى إنتاج جيل جديد من القراء الجدد، اتخذوا موقفا نقديا من التراث الديني الإسلامي. هذا البحث يعدد الإخفاقات والمنافع التي أفرزتها حركة التفاعل المنهجي بين الفكر الإسلامي المعاصر والحداثة الغربية، وبخاصة الدور الأساسي الذي لعبته النظرية البنوية في صياغة نموذج عربي جديد في " تحليل الخطاب القرآني".

الكلمات المفتاحية:

النص القرآني؛ مناهج الحداثة؛ المنهج البنوي؛ التأويل؛ المحايثة؛ تحليل الخطاب القرآني؛ العلمانية؛

Abstract:

This study is intended to explain the intellectual and philosophical influence exerted by Western modernity on contemporary Islamic religious thought, and how this led to the production of a new generation of exegetes, who took a critical position on Islamic religious heritage.

This research lists the failures and benefits of the methodological interaction between contemporary Islamic thought and Western modernity, especially the fundamental role played by structural theory in the formulation of a new Arab model in the "analysis of the Quranic discourse".

key words:

Quranic text; modern approaches; structural approach; interpretation; immanence; Quranic discourse analysis; secularism;

مقدمة:

القرآن نص ديني في المقام الأول، لأنه يثبت الماهية الدينية للوجود. حضوره يرسخ حقيقة وجود الله في مقابل عبودية الإنسان. وبين الوجود الأول والوجود الثاني، يشكل النص القرآني حلقة اتصال وثيقة وضرورية، باعتباره الناموس المنظم لمقامات التعبد (أصول الفقه ومقاصده) وطرائقها العملية والتطبيقية (الشريعة أو الفقه). والحقيقة الثابتة المرتبطة بهذا النص وعلى الرغم من وضعه الإلهي المتعالي، هي حاجته الدائمة للقارئ والمفسر لاستنباط قوانين هذا الناموس المنظم لشعائر التعبد وأحكام الشريعة والفقه، علاوة على الحقائق والقيم المرتبطة بالمعرفة الإنسانية والكونية التي يزخر بها هذا النص الفريد. هذا الوضع الاستيمولوجي للقرآن الكريم، هو ما يفسر الجدل القائم اليوم حول هذا التحول في نمط "قراءة القرآن وتفسيره"، من النمط التفسيري التراثي، الذي أنتجته المدرسة الإسلامية التقليدية الأصولية، إلى نمط جديد محدث، ينهل أغلب قيمه المنهجية والإجرائية من نظام الحداثة المعاصر. هذا المقال سيخوض في هذه المسألة، محاولاً عرض العلاقات الفكرية والمنهجية التي يثيرها استخدام مناهج الحداثة في قراءة النص القرآني، وكل ذلك من أجل تحديث مواطن التهافت وكذا مواطن المنفعة التي يفرزها هذا الالتقاء المنهجي والمعرفي بين مناهج الحداثة والنص القرآني.

أولاً: النص القرآني في المشهد الفكري العربي المعاصر:

إن المتأمل في بنية الفكر العربي المعاصر، في علاقته وتعامله مع القرآن الكريم، سيلاحظ منجزاً ضخماً من المنظورات والرؤى والتصورات. وهي في أغلب الأحيان تشكل مواقف وآراء غير متجانسة، حيث تكسرت عندها الصلابة والتماسك والنسقية التقليدية للفكر الإسلامي، المبنية بالأساس حول محورية النص القرآني باعتباره جوهر الحضارة العربية الإسلامية وأصل وجودها.

وقد تأسست هذه النسقية عبر قرون، وتأصلت كلها _ وعلى الرغم من اختلافاتها المذهبية _ على اعتقاد راسخ ومشترك هو "ربانية الظاهرة القرآنية وسماويتها". وتتشكل هذه

النسقية التفسيرية/ التأويلية للنص القرآني من مجموعة من المؤسسات الفكرية والدينية، التي ظلت تصون قدسية القرآن وتضع الضوابط الفقهية والأصولية لتفسيره وتأويله إلى غاية مشارف العصر الحديث، قبل أن تبدأ النوازل الفكرية والمنهجية بالتسرب إليه. ويمكن أن نحصي ضمن هذه المؤسسات: أجيال المفسرين، المدرسة التاريخية العربية القديمة، المذاهب الدينية، السنية والشيعية، المذاهب الفكرية والفلسفية وعلم الكلام، كالأشعرية، المعتزلة، والطرق الصوفية... الخ. بالإضافة إلى المؤسسة السياسية للخلافات والدول والإمارات المتعاقبة. حيث تولت كلها صون هذه القدسية؛ حيث كانت تستمد منها شرعيتها، بل وكانت الأصل في ظهور بعض المؤسسات المذكورة آنفا، وبخاصة في العصرين الأموي والعباسي والأندلسي.

نحن نستعرض هنا هذا المشهد الاستمولوجي لأصولية التعامل مع النص القرآني والتأكيد على طبيعته المبنية على فكرة القداسة والربانية. لنوضح أننا اليوم في موقفنا من هذا التراث الأصولي، وفي موقفنا من الحضارة الغربية التي توغلت إلى أبعد نقطة في واقعنا وفكرنا، نبدو وكأننا أمام المتر الأخير من انهيار النظام الأصولي القديم.

وقد بدأ أمر الشك في صلاحية المؤسسة الأصولية القديمة يدب مع مطلع العصر الحديث من خلال كتابات صادمة للفكر العربي الحديث، على غرار فكر "محمد عبده" (1849-1905م) الذي دعا إلى ضرورة استعارة العلوم الغربية لتفسير القرآن الكريم⁽¹⁾. كما صدرت كتب صادمة هزت كيان الفكر الأصولي القديم، على غرار كتاب "الإسلام وأصول الحكم" لعلي عبد الرزاق (1925م). "في الشعر الجاهلي" لطفه حسين (1926م). كتابات العقاد عن الفكر الإسلامي التي تبدو في ظاهرها أنها مشدودة بحبال متينة للماضي والتراث. إلا أنها لا تخلو من تأثير الوافد الغربي الجديد. كالفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع... الخ

وقد استفحل الأمر مع ظهور تيار فكري عربي معاصر، تبنى طروحات المناهج الفكرية والفلسفية الغربية، على غرار محمد أركون، محمد عابد الجابري، نصر حامد أبو زيد، أدونيس، محمد شحرور، جورج طرابيشي، طارق رمضان، عبد المالك شبيل، عبد النور بيدار... الخ

وما يوحى أكثر أننا أمام "موقف فكري وحضاري جديد" إزاء النص القرآني هو ظهور صراعات فكرية وضجعات إعلامية صاخبة بين الفينة والأخرى، موضوعها الأساسي هو التشكيك

في بعض الأحكام الفقهية التي أعتقد لزمن طويل انتهاء الجدل فيها، كتحريم شرب الخمر، وزواج المتعة، ارتداء الحجاب والنقاب والبرقع، المساواة في الميراث بين الذكر والأنثى، إرضاع الكبير، وحكم رجم المحصن الزاني. بالإضافة إلى رفع القداسة عن بعض الشخصيات الدينية، كالطعن بل ورفض نظام الخلافة والصحابة، والتعرض لبعض زوجات النبي صلى الله عليه وسلم، وبخاصة السيدة عائشة. ولم يسلم من ذلك رواة الحديث وبخاصة أبو هريرة، بل وتسلت رياح الشك إلى كتب السنة المشهورة. وهذا الفصام التاريخي يوحى فعلا بأننا أمام عصر فكري جديد يسعى « لإخراج النص القرآني من دائرة القداسة إلى محيط الدراسة»⁽²⁾.

لكل ذلك تدعونا الظروف الفكرية والعقائدية اليوم لمحاولة فهم هذا التحول الصارخ في بنية الفكر العربي الإسلامي وموقفه من النص القرآني، ولذلك ينبغي علينا طرح الإشكالية التالية: هل يعتبر التفكيك الممارس على أصولية الفكر العربي الإسلامي ومنه تفتيت النسخة القديمة التراثية لتفسير القرآن الكريم وتأويله باستجلاب وتقمص المنهج الفكري الغربي مفيد للنص القرآني؟ هل هو محرر له من القيود السلفية التراثية، مخلص له من الانغلاق الزماني على الحضارة الإسلامية القديمة، أم أنه خطر فكري محقق، من شأنه أن يلقي به في فلوات زيف التفسير الإنساني المنفلت من كل قيد أو شرط رباني؟

للإجابة على هذه الأسئلة سنحاول تعداد الأخطار أو المنافع المحتملة لتطبيق المنهج الفكري الغربي ومناهجه على القرآن الكريم، وذلك من خلال نموذج الفكر البنيوي، الذي شكل روح فترة الحداثة وجوهرها عند الغرب، كما كان له تأثير عميق في إعادة صياغة الفكر العربي الحدائي خلال الفترة الممتدة من الستينات إلى التسعينات من القرن الماضي.

ثانيا: المنهج البنيوي والقرآن: الأضرار والمنافع:

تعتبر البنيوية أهم منهج في الحضارة الغربية (و بخاصة في شقها الأوروبي) في فترة ما يسمى بالحداثة. بل يمكن اعتبارها تتويجا للمخاضات الطويلة لعصور التنوير الأوروبية. فقد اجتمعت في هذا المنهج واختمرت أهم المقولات الفكرية والعلمية والفلسفية لمرحلة الحداثة الأوروبية: كالعقلانية والتجريب وتصاعد النسق التكنولوجي، الروح العلمية والموضوعية، طغيان النزعة التفاؤلية بقدرة العلم والعقل البشري على تفسير الظواهر وتحقيق سعادة

الإنسان عن طريق الرفاه الاقتصادي والتكنولوجي. الذي يمكن أن تحققه كل أركان الحداثة المذكورة أعلاه.

وقد توغل هذا المنهج، الذي ظهر في بادئ الأمر كمنهج للبحث اللساني على يد فرديناند دي سوسير، إلى أغلب العلوم الإنسانية والدراسات الأدبية والنقدية، بعد أن كان بالأساس منهج العلوم التجريبية، وبخاصة البيولوجيا وعلم الأحياء، « فالبنوية هي الهيئة النظرية التي جددت علوم الإنسان والتي لا تزال تلهم حركات العلوم الطبيعية»⁽³⁾

ويقع " مبدأ المحايثة" في قلب المنهج البنوي، حيث يقوم هذا المنهج على طموح كبير هو البحث في الأنساق الطبيعية والإنسانية. الأنساق التي تحكم الكون والحياة الإنسانية على السواء. ولأجل تحقيق البحث عن هذه الأنساق واكتشاف قوانينها المجردة والكلية، يستند المنهج البنوي على مبدأ المحايثة، وهو مبدأ علمي يلزم الباحث بضرورة طلب قوانين الأشياء والموضوعات داخل دائرة الشيء أو الموضوع، وعزل نسق هذا الموضوع عن الأنساق الأخرى، بما في ذلك الأنساق المحيطة به أو المتعاقبة معه زمانيا ومكانيا وسببيا.

و من ثمة الانكفاء بالبحث عن العناصر المشكلة له ووصفها وتحليل العلاقات بين هذه العناصر، على غرار ما فعل سوسير في موضوع اللغة ، مع مطلع القرن العشرين، حيث دعا إلى ضرورة عزل النسق اللغوي عن السياقات الخارجية لنشوء وتطور لغة ما، والاكتفاء بالعناصر البنوية المشكلة لهذه اللغة، والبحث عن قوانينها الداخلية وآليات اشتغالها، وطبيعة العلاقة بين عناصرها. وقد شكل هذا الطرح في بداية القرن العشرين تحولا جذريا في مفهومنا للغة، وشيد صرحا منهجيا جديدا للدراسات اللغوية في العصر الحديث جعل من اللسانيات «العلم الوحيد الذي يستحق هذه الصفة ضمن حقل العلوم الاجتماعية»⁽⁴⁾ حسب اعتراف كلود ليفي شتراوس أحد أهم العلماء الذين استلهموا من هذا العلم.

وقد سار علم الأنثروبولوجيا على خطى علم اللغة البنوي، وحاول علماء الأنثروبولوجيا « تعلم سر النجاح الذي حققه علماء اللسانيات»⁽⁵⁾ حيث استعاروا من هذا العلم نزعتة المنهجية الوضعية « الصارمة التي كانت حكرا على العلوم الطبيعية»⁽⁶⁾ ومفاهيمه الإجرائية، وبخاصة مفهوم المحايثة ومفهوم النسق، للبحث عن الأنساق التي تحكم العقل البشري، من أجل محاولة فهم كيفية اشتغال الأسطورة وأنظمة القرابة وآليات إنتاج الثقافات المادية

والمعنوية عند الشعوب، وقد حصل انتقال المنهج البنيوي وإجراءاته من اللغة إلى الأنثروبولوجيا خلال الخمسينات من القرن الماضي على يد الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي شتراوس، ثم غزا هذا المنهج تقريبا كل حقول المعرفة الإنسانية وأصبح بذلك السمة المميزة لعصر الحداثة. وقد ترتبت على مركزية حضور المنهج البنيوي في فترة الحداثة إطلاق مصطلح ما بعد البنيوية لوسم فكر ما بعد الحداثة،

وقد كان لهذا المنهج الذي عمر إلى غاية سبعينيات القرن الماضي في أوروبا، تأثير قوي على البنية الثقافية العربية بفعل مؤثرات عدة، كالاستعمار الحديث الذي كان لمدارسه المتواجدة في البلدان المستعمرة تأثير قوي في تكوين النخب السياسية والثقافية التي ستتولى زمام الحكم والسياسة والتعليم بعد الاستقلال. وكذلك تأثير المناهج التعليمية المستجلبة من الغرب، والتي تقوم بالأساس على طروحات هذه المناهج، وبخاصة المنهج البنيوي الذي كان له تأثير قوي خلال السنوات الأخيرة على مستوى المدارس والجامعات العربية.

ما يحصل اليوم من تغير عميق في البنية التراثية للعقل العربي، هو نجاح في الحقيقة لتوغل هذه المناهج في العقل العربي، الذي بدأ يتخفف شيئا فشيئا من إلزامات النظرية العربية الإسلامية في رؤية العالم، المبنية بالأساس على الفكرة الدينية، والتي يقع في صميمها قداسة القرآن الكريم. هذا الأخير أحيط بمقولات حامية وصلدة، منعت عنه، ولقرون طويلة، الجراءة في التأويل أو العبث بالقراءات الموروثة مثلما أسلفنا في مطلع هذا المقال. ويمكن الاستدلال على هذه الوضعية العلمية/ المنهجية للفكر العربي المعاصر إزاء التراث الديني من خلال النص الآتي لمحمد عابد الجابري:

« إن القطيعة التي ندعو إليها ليست القطيعة مع التراث بل القطيعة مع نوع من العلاقة مع التراث، القطيعة التي تحولنا من " كائنات تراثية" إلى كائنات لها تراث، أي إلى شخصيات يشكل التراث أحد مقوماتها، المقوم الجامع بينها في شخصية أعم، هي شخصية الأمة صاحبة التراث.

مشكلة المنهج بالنسبة لموضوعنا ليست مشكلة الاختيار بين منهج تاريخي وآخر وظيفي وثالث بنيوي... إلى آخر القائمة، قد يصلح أحد هذه المناهج في ميدان وقد لا يصلح في ميدان

آخر، لكنها جميعا لا تصلح إلا عندما يكون الموضوع منفصلا عن الذات»⁽⁷⁾. الجملة الأخيرة تلخص مقدار توغل الفكر الحداثي الغربي في العقل العربي.

لكن، هل هذا التحول في بنية العقل العربي مفيد أم انه خطر محقق بقداسة القرآن الكريم ونظامه التفسيري والتأويلي الموروث عن الأسلاف؟ هل يجدر بنا اليوم رفض وإعلان حرب مقدسة على هذه المناهج؟ أم أننا مطالبون فكريا ودينيا بطلبها ولو بأوروبا والغرب؟ هل هذه الكتابات الإسلامية الحداثية التي «تدثر بمناهج ألسنية وسوسيولوجية وتاريخية، وأنتروبولوجية، أدت إلى تحريف المعاني القرآنية، وإخراج النصوص عما هو مجمع عليه، فضلا عن تناقضها مع مقاصد الشريعة الإسلامية؟»⁽⁸⁾

1/ أضرار المنهج البنيوي:

يمكن إجمال أضرار المنهج البنيوي على قراءة النص القرآني فيما يلي:

يكمن أكبر خطر يمكن أن يصيب قراءتنا للقرآن الكريم على الوجه الرباني الصحيح في "مشكلة المحايثة"، التي تدعو كما أسلفنا لعزل الموضوع، بمعنى النص هنا، عن سياقاته الزمنية والمكانية. وهذا مبدأ سيلغي إذا ما طبق على قراءة النص القرآني قيمة جوهرية للقرآن الكريم، باعتباره "نصا إلهيا". وهذا "الوضع الالهي" للقرآن الكريم، يجعل كل عمليات القراءة مشدودة وبقوة لهذه العلاقة التفسيرية/ التأويلية. وهذا ما فعله تماما محمد أركون، المتأثر بقوة بالفكر العلماني (نسبة إلى العلم) حيث يرى أن « النظرة العلمانية تعلن بأنها تذهب إلى أعماق الأشياء، إلى الجذور من أجل تشكيل رؤيا أكثر صحة وعدلا ودقة»⁽⁹⁾ وقد تأثر بقوة ضمن سياق الفكر العلماني المعاصر بالمنهج البنيوي، وغالبا ما كان يستعين في بحوثه بمعطيات « التحليل الألسني والسميائي حول الخطاب القرآني في فهم الوحي»⁽¹⁰⁾، حين دعا لرفع القداسة عن القرآن الكريم واعتباره نصا عاديا، وهو ما جرّ عليه حربا شعواء من طرف المثقفين العرب، وكذا السلطة السياسية في الجزائر.

وقد سار على ذلك النحو نصر حامد أبو زيد ولكن بحذر أكبر والذي دعا صراحة إلى «أنسنة الوحي»⁽¹¹⁾. ويمكن أن نضيف في هذا السياق آراء أدونيس، لكن هذا الأخير لا يكن أن ندرجه ضمن "المفسرين الجدد" لأنه لم يكن متخصصا في تطوير مناهج لقراءة القرآن على غرار

ما فعل أركون ونصر حامد أبو زيد، بل يندرج ضمن مضمار القراء المعاصرين الذين حاولوا تقديم «نقد علمي للعقل العربي»⁽¹²⁾

المضرة الأخرى التي قد يجرها تطبيق المنهج البنيوي على النص القرآني، هو الطبيعة الإجرائية لهذا المنهج. حيث تتميز البنيوية بكونها منهجا شكليا، يبحث في البنى الداخلية للأنساق المختلفة، بهدف اكتشاف القوانين المجردة لاشتغالها. بمعنى أن البنيوية تشتغل على شاكلة العلوم التجريبية. وهذا الاهتمام بالبحث عن طبيعة وآليات اشتغال المواضيع والأنساق أوقع البنيوية في معضلة المعنى، وبخاصة في حقل العلوم الإنسانية، حيث إن هذا المنهج طور آليات وإجراءات للكشف عن آليات إنتاج المعنى، كما حصل في حقل الدراسات اللغوية والأنثروبولوجية والأدبية، لكن البنيوي عجز عن تطوير، داخل هذه الحقول، أدوات وإجراءات للقراءة والتأويل.

بمعنى أن هذا المنهج يتنافى، وفق هذا الطرح، مع الجوهر الآخر للنص القرآني باعتباره نصا تأويليا بامتياز. لأنه ليس نصا تشريعا تستنبط منه الأحكام بالقراءة البسيطة الميسورة. هو نص الاختلاف والمتشابه والمنسوخ، نص زمني وتاريخي ومنفلت من الزمن والتاريخ في الآن ذاته. لأنه نص كوني وأممي. نص البداية والنهاية. نص عابر للديانات والحضارات والأزمان. لكل ذلك فهو نص مطلبه الأساسي التأويل من لدن الراسخين في العلم؛ والراسخون في العلم هم المرادف المعاصر للمنهج التأويلي المناسب للطبيعة الربانية للقرآن الكريم.

لذلك تقع كل القراءات العلمانية (من العلم) والعقلانية للنص القرآني، فيما وقعت فيه وما زالت تتخبط فيه العلوم التجريبية. إذ هي واقعة اليوم، وعلى الرغم من كل ما حققته من إنجازات عظيمة للإنسانية، في الأزمنة العلمية/المعرفية، المتمثلة في ثنائية "أولية وغائية" الظواهر الطبيعية. حيث لم تُجب وعلى الرغم من التراكمات العلمية وتعاقب أجيال العلماء والنظريات، وبخاصة بعد ظهور المنهج التجريبي، عن سؤالين أساسيين هما: ما هو أصل الظواهر الطبيعية ومنه السؤال عن أصل الكون والوجود (سؤال الأولية).

أما السؤال الثاني، فهو الغاية من وجود الكون. ولا يمكن الجواب على هذه المشكلات العلمية والفلسفية عن طريق مناهج الحداثة، سواء على مستوى العلوم التجريبية أو العلوم الإنسانية، لسبب بسيط هو الإكراهات المنهجية لهذه المناهج القائمة على مبدأ "المحاثة"

و"الموضوعية": حيث تعد هذه المشكلات ذات طابع ميتافيزيقي أو متعال، تخرج عن اختصاص نظام الحداثة برمته.

لذلك فنظام الحداثة لا يستقيم مع النص القرآني الذي جاء أصلاً لرأب الهوة بين سؤالَي الابتداء (أصل الكون والإنسان) والغائية (لماذا خلق الكون والإنسان).

2/ منافع المنهج البنيوي:

هل يمكن أن تكون هناك أشياء قد ينتفع بها في البنيوية لقراءة النص القرآني؟

لا ننع في التناقض إذا قلنا أنه يوجد فعلاً منافع شتى يمكن الاستفادة منها لمقاربة القرآن الكريم مقارنةً بمتجده (وهذه هي الروح الأسمى للقرآن). ولكن مع التنبيه إلى ضرورة تقليص المنابت الأيديولوجية للبنيوية، وبخاصة فيما تعلق بمبدأ المحايثة العلماني (من العلم دائماً). ويمكن أن نوجز المنافع البنيوية في علاقتها بقراءة النص القرآني فيما يلي:

لقد شكل المنهج البنيوي، وبخاصة في حقل الدراسات اللغوية، مهاداً ورافداً أساسياً لأغلب المناهج والمدارس اللغوية في العصر الحديث. وقد راكم هذا المنهج رصيماً هائلاً من الإجراءات والمفاهيم اللغوية التي أسهمت في تعميق وعينا بالظاهرة اللغوية ومشكلاتها. وبما أن القرآن هو ظاهرة لغوية (معجزة لغوية)، فإن المفسرين اللغويين الجدد في البيئة العربية قد استفادوا أياً استفادة من هذا المنهج الغربي، الذي أقامت صرحه اللسانيات البنيوية الحديثة، التي لم يكن لها أن تقوم دون المنهج الأساسي لهذه المرحلة وهو المنهج البنيوي، فاتح مغاليق الحداثة الأوروبية.

و لنا اليوم أن نرى عدد البحوث الأكاديمية التي انبرت لتدارس القيم اللغوية، الأسلوبية، الدلالية، والبلاغية للقرآن الكريم، باستخدام الطروحات اللسانية المعاصرة، وقد لا يعلم الكثير أن أغلبها يرتد إلى أصل قديم هو المنهج البنيوي. ولعل العرب لم يتنبهوا لخطورة هذا المنهج، لأن حدة هذه الخطورة الأصلية خفت مع تقادمه، بسبب مراجعة الحضارة الغربية نفسها لهذا المنهج، واستثماره في بعث تفرعات منهجية عديدة ومفيدة وعملية، كالبعد الوظيفي، التواصل، والتداولي، أو باستثمار نتائج اللسانيات البنيوية في حقول إنسانية مختلفة، كالترجمة وتعليمية اللغات، وصياغة المناهج التربوية والبيداغوجية، تعليمية النصوص، تحليل الخطاب، ضمن ما يعرف باللسانيات التطبيقية، وعندما تتأمل الدراسات

اللسانية للقرآن الكريم اليوم، ندرك فعلا أننا أمام علم عربي إسلامي جديد ، يمكن أن نطلق عليه مصطلح " تحليل الخطاب القرآني".

يقوم التفكير البنيوي برمته على فكرة الإيمان بوجود النسق، ويعد هذا الإيمان ضروريا لأجل بلوغ التفسير الكلي، والنهائي للكون وموجوداته، حيث يقوم الفكر البنيوي على فكرة انتظام «العالم الإنساني كعالم أنظمة ثقافية موضوعية لا واعية أو جمعية يدخل ضمنها الأفراد»⁽¹³⁾. وقد طرح البناءون الأوائل للفكر البنيوي مشروع تفسير الظواهر في مجالات اختصاصهم من خلال التدرج في تحليل الأنساق المختلفة، بدء بالنسق الأصغر الذي يحكم قوانين البنى الصغرى لموضوع ما، كالجملية أو النص في لغة ما. وصولا إلى النسق الأكبر، الذي يحكم القوانين الكلية لاشتغال نظام موضوع معين أو حقل معرفي، كالقوانين الكلية لاشتغال لغة من اللغات، وصولا إلى النسق الكلي الذي يفترض البنيويون وجوده وهو القوانين الكلية المجردة التي تحكم «الأبنية العقلية الكلية العميقة»⁽¹⁴⁾ للفكر البشري. وقد رفع البحث البنيوي طموحا كونيا وهو تحليل كل أشكال الأنساق من أجل الوصول إلى النظام الشمولي المفترض الذي يحكم العالم. وهو اعتقاد راسخ لدى أغلب أعلام البنيوية، وعلى رأسهم كلود ليفي شتراوس الحبر الأعظم للفكر البنيوي الذي « افترض وجودا ميتافيزيقيا خالصا»⁽¹⁵⁾.

و قد فشل هذا الطموح العلمي المعجز باعتراف العرايين الأوائل لهذا المنهج أمثال اللغويين (و بخاصة أتباع دي سوسير)، الشكلايين الروس، رولان بارت، كلود ليفي شتراوس. وقد عجزوا كلهم عن تحقيق الأهداف الشمولية للبنيوية، لاستحالة استنفاذ البحث في كل البنى الصغرى المشكلة للكون أو لموضوعات تخصصاتهم، لكثرتها وتنوعها واختلافاتها.

لكننا نعتقد أن سبب الإخفاق الأكبر في تحقيق هذا الطموح الكبير الذي رفعته البنيوية، هو النزعة الإلحادية والإنسانية واللاتاريخية للمنهج البنيوي، فالبنيويون ينطلقون من فرضية منهجية مفادها « إسناد جميع أنواع الانطلاقات إلى البنيات»⁽¹⁶⁾. وذلك لاعتقاد البنيويين بأن الأنساق معزولة عن الإنسان وعن التاريخ، ولا تحكمها قوانين خارجية، ونفي كونها تنخرط في إرادة وقوة كلية خلقتها لغاية ما، وتسيورها بعيدا عن قوانينها الخاصة. وذلك لاعتقاد الفكر البنيوي بأن النسق هو نظام من العناصر المكتفية بذاتها والتي تمتلك قوانين انتظامها الداخلي. وأن كل بنية « تستطيع أن تضبط نفسها. هذا الضبط الذاتي يؤدي، إلى الحفاظ عليها، وإلى نوع من الإغلاق»⁽¹⁷⁾

وتكمن فائدة الطرح البنيوي بالنسبة لطرح مقارنة جديدة " لتحليل الخطاب القرآني"، في قلب عملية البحث البنيوي وعكس مسار البحث في الأنساق المختلفة. ويكون ذلك بحقن هذا المنهج بزعة إيمانية مفادها أن القرآن الكريم هو النسق الكلي لكل الموجودات والموضوعات، الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وأنه الأثر الإلهي الذي رسمت فيه كل أسرار الكون. هو "البنية النظرية" بتعبير لوسيان غولدمان للكون وأساراه وقوانينه الخفية. و بعد وضع هذه الفرضية والانطلاق منها، نشرع في إجراء عمليات البحث البنيوي عن أسرار أنساق الكون وعن أسرار النص القرآني على حدّ سواء، وفق حركة ذهاب وإياب بين القرآن والكون، بغية البحث عن قوانين النسق الإلهي الكلي.

بعد تدعيم البنيوية بهذا المدد الإيماني، ستتكشف حجب الأنساق وتتدفق منها الإجابات وتفشى الأسرار. وسيدرك المفكرون بأن البنيويين الأوائل لم يكونوا تماما على خطأ، لأن هناك فعلا بنية كلية ونسق شمولي يحكم الكون؛ هو المعرفة الإلهية. ولا يمكن افشاء أسرار هذا النسق إلا بإفشاء أسرار نسق موازي هو نسق المعرفة القرآنية. ومن هذا المنظور، يبدو لنا أن أهم طموحات المعرفة الإسلامية تتمحور حول محاولة الكشف عن الأنساق الشمولية للمعرفة الدينية، التي تفضي إلى تكوين معرفة إلهية شمولية. لذلك لا نجد أحسن من المنهج البنيوي لهذا الطموح الشمولي باعتباره أهم « مكتسبات وفتوحات الروح البشرية»⁽¹⁸⁾.

لقد عالج العصر البنيوي في الفكر الحدائي، مشكلة أساسية تتقاطع مع إشكالية أساسية متعلقة بقراءة النص القرآني. وهي مشكلة تنبثق من التمييز الذي جعله محمد أركون «لفضاء الخطاب القرآني الذي يمتلك مكانته الاستيمولوجية الخاصة بسبب طبيعته بنيته اللغوية أولا، ثم بسبب ثيولوجيا التاريخ التي يرسخها»⁽¹⁹⁾.

هذه الميزة الثنائية للخطاب القرآني باعتباره فعلا تأويليا، أدت إلى تراكم طبقات تاريخية كثيفة من التفسيرات، التي تكدست عبر العصور، وأصبحت بمثابة مرجعية ضرورية في الفكر الديني التراثي. ثم تحولت تبعا لذلك إلى "لازمة سياقية" لتفسير النص القرآني، بل وتحولت إلى منافس حقيقي للمرجعيات السياقية الأصلية للقرآن الكريم ذاته؛ كالسياق الإلهي وسياق النزول. وقد أفضى هذا التراكم التراثي للقراءات التي تقحم وجوبا في كل قراءة جديدة إلى قراءة « لا تاريخية، وبالتالي فهي لا يمكن أن تنتج سوى نوع واحد من الفهم للتراث هو: الفهم التراثي للتراث. التراث يحتويها وهي لا تستطيع أن تحتويه لأنها: التراث يكرر نفسه»⁽²⁰⁾.

لقد نبه المنهج البنيوي إلى حقيقة قرآنية مهمة، مرتبطة بالنص القرآني، وهي قدرة هذا النص على الإشعاع الدلالي من داخله، انطلاقاً من دلالاته الكامنة على مستوى قوانين التركيب اللغوي (النحوي، المعجمي، الصرفي، الصوتي... الخ). وهذه الدلالات تتولد من خلال الإعجاز الداخلي لهذا النسق اللساني للخطاب القرآني، ويمكن الاستدلال على ذلك من خلال الدراسات اللغوية الحداثيّة للقرآن، التي أشاعت - لكثرتها وكثرة استخدامها للمقاربة اللسانية البنيوية- فكراً لسانياً معاصراً، مرتبطاً بالقرآن الكريم.

بمعنى أن الرؤية الآنية اللازمية «المناقضة للتاريخية وللوراثية»⁽²¹⁾ في التفسير على أساس تعاقبي، لذلك فقد وضعت هذه الرؤية النص القرآني في مقامه الصحيح، باعتباره نصاً لا زمني، غير مرتبط بتاريخ يعين دلالاته بشكل نهائي، أو حضارة تسميه بخصائصها المتغيرة في كل حين. هو نص متحرك في التاريخ والحضارات، لكن هذه الحركية لا تنفي قدرة القرآن الكريم على الإشعاع الدلالي والمعرفي، في كل لحظة يلتقي فيها وعبه الإلهي والكوني بوعي حضارة ما. يلخص محمد أركون هذا الوضع المعرفي الاستيمولوجي للخطاب القرآني برؤيته في قراءة الإسلام وتفسيره، حيث يقول بأن قراءته « لن تكون قراءة خطية متسلسلة في الزمن، أو قراءة دوغمائية تحذف ما عداها وتغطي على كل الفضاء الجغرافي المحدد من قبل الكتاب والثقافة العاملة التي رافقته في العواصم والمدن. فهذه القراءة التقليدية هي التي فرضت بالقوة من قبل التراث وركزت على فضاء واحد وحجبت فضاء آخر»⁽²²⁾

خاتمة:

لقد سلطنا الضوء في هذا المقال على إشكالية مركزية، تتمثل في اللقاء المحتوم والمصيري الذي وقع بين النص القرآني الذي نزل في بيئة لسانية وثقافية عربية، وبين عصر فكري ومنهجي هو عصر الحداثة، الذي نشأ في حضارة أخرى وبيئة لغوية وثقافية مغايرة للبيئة الحاضنة للنص القرآني درساً وتفسيراً منذ قرون طويلة. وقد ولد هذا اللقاء جدلاً واسعاً في ساحة الفكر العربي المعاصر، انقسم بين رافض لهذا اللقاء الذي يبدو في ظاهره مستهجنًا ومخالفاً للطبيعة المعرفية للقرآن وللثقافة التي أنتجته، وبين مرحب متحمس لاستخدام منجزات الحداثة لأجل التوغل أكثر في المعرفة القرآنية واستنطاق أعمق لعلومها ومعانيها. وقد أبرزنا من خلال عرض جملة من المزالق وكذا الفوائد الذي سحما التقاء فكر الحداثة الغربي بالمعرفة القرآنية، مجموعة من الحقائق، تبرز ضمنها حقيقة أساسية مفادها أن النص القرآني لا يخشى النظريات ولا الحضارات، فهو حين يلتقيها إما أن ينسفيها ويثبت بطلانها، أو أنه ينهل

من قيمها المنهجية ما يعمق به وعي الإنسانية بالحقائق الربانية. كما يكن أن يحصل لقاء حذر ينفع ويضر، ولكن نفعه أكثر من ضرره، فيؤخذ به مثل ما عرضنا من خلال إحصاء الفوائد والمضار العلمية والمنهجية التي جرهما استخدام المنهج البنيوي في تحليل النص القرآني.

الهوامش:

- 1- ينظر: عاطف العراقي، الشيخ محمد عبده (مفكرا عربيا ورائدا للإصلاح الديني والاجتماعي)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 1995.
- 2- حمادي هوارى، النص القرآني وآليات الفهم المعاصر، شهادة دكتوراه مخطوطة، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2013/2012م، ص204.
- 3- جان بياجيه، البنيوية، تر: عارف منيمنه وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، باريس، ط4، 1985، ص13
- 4- Claude Lévi-Strauss, *anthropologie structurale*, Pocket, Paris, 2012, p43
- 5- Ibid. p85
- 6- Ibid. p85
- 7- محمد عابد الجابري، نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا السلفي، المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط6، 1993، ص21
- 8- عبد السلام أحمد فيغو، القراءة المعاصرة للنصوص الشرعية، دراسة تحليلية نقدية، دار الكلمة، القاهرة، ط1، 2016، ص08
- 9- محمد أركون. العلمنة والدين، (الإسلام، المسيحية، الغرب)، تر: هاشم صالح، دار الساقي، ط3، 1996، ص23
- 10- حمادى هوارى، النص القرآني وآليات الفهم المعاصر، ص150
- 11- نفسه، ص232
- 12- محمد عابد الجابري، نحن والتراث، ص16 «»
- 13- سايمون كلارك، أسس البنيوية، نقد ليفي شتراوس والحركة البنيوية، تر: سعيد لعلبي، دار بدائل، القاهرة، ط1، 2015، ص112
- 14- اديت كريزويل، عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ط1، 1993، ص17
- 15- سايمون كلارك، أسس البنيوية، ص113
- 16- جان بياجيه، البنيوية، ص51
- 17- نفسه، ص13
- 18- محمد أركون. العلمنة والدين، ص09
- 19- نفسه، ص45

- 20 محمد عابد الجابري، نحن والتراث، ص13
-21 جان بياجيه، البنيوية، ص13
-22 محمد أركون. العلمنة والدين، ص48